

## إشكالية الثقافة في العلاقات التاريخية بين الحضارات

(تحليل سوسيولوجي لإشكالية التفاعلات الحوارية و الصراعية بين الحضارات  
ذات الأسس الثقافية المتباينة )

د/ براج محمد الشيخ

د/ سحوان عطاء الله

جامعة الجلفة

## المخلص :

## Abstract :

Psychology is based on individual differences, and sociology is based on collective differences, while the science of civilizations is based on cultural differences between nations, peoples and tribes. In these differences and cultural differences, there has been a difference between scholars, philosophers and thinkers. Is the main cause of clashes and civilizational conflicts or the basis of understanding, understanding, coexistence and civilizations? As a result, theories and schools emerged to explain the cultural roots of the clash of civilization, understanding, acquaintance, coexistence and civilizational dialogue among nations, peoples and tribes, the subject of this article

يقوم علم النفس على أساس الفروق الفردية ، كما يقوم علم الاجتماع على أساس الفروق الجماعية ، بينما يقوم علم الحضارات على أساس الفروق الثقافية بين الأمم والشعوب والقبائل . في هذه الفروق والإختلافات الثقافية حدث تباين وإختلاف بين العلماء والفلاسفة والمفكرين ، هل السبب الأساسي في الصدامات والصراعات الحضارية أم هي أساس التفاهم والتعارف والتعايش والحضارات ؟ وعلى إثر ذلك ظهرت نظريات ومدارس تفسر الجذور الثقافية للصدام الحضاري والتفاهم والتعارف والتعايش والحوار الحضاري بين الأمم والشعوب والقبائل وهو موضوع هاته المقالة .

## الكلمات المفتاحية :

إشكالية الثقافة ؛ العلاقات التاريخية ؛ الصدام الحضاري ؛ التعايش الحضاري ؛ التفاهم الحضاري ؛ الحوار بين الحضارات .

**تمهيد:**

تظهر الحضارات على مر الدهور وكر العصور وتباين الثقافات عند الأمم والشعوب على مسرح التاريخ حاملة معها العلوم والفنون والصناعات والإبداعات الفيزيائية والميتافيزيائية والأديان والشرائع والقوانين ، منتقلة من نقطة جغرافية إلى نقطة أخرى وفقاً لقوانين ونواميس التاريخ القاهرة ، سنة إلهية ماضية في العمران البشري والإجتمع الإنساني ، تشرق في نقطة كالشمس في رابعة النهار ثم تتحرك بهدوء بطيء لا تراه العين المجردة لتغيب فجأة عنها ويحل محلها ظلام التخلف الحضاري ولا يبقى من تلك الحضارة إلا أثارها وذكرياتها الخالدة في بطون الكتب إنها قوانين التاريخ المتماثلة مع قوانين الحياة عند البشر : طفولة ثم الشباب ثم قوة وكهولة ثم شيخوخة وهرم ثم وفاة ، هذا ما ينطبق تماماً على حركة الحضارات في مخبر التاريخ .

لقد ظهرت الحضارة الصينية وتركت عبقريتها وبصمتها المعرفية والثقافية على صفحات التاريخ ثم غادرت مخبر التاريخ ، كما ظهرت الحضارة الآشورية وتركت بصمات في علم القانون والتمدن وجعلت العالم مشدوهاً ومدهوشاً من تلك الإبداعات الحضارية رداً من الزمان ثم ظهرت الحضارة المصرية الفرعونية وتركت بصماتها الأثرية محيرت علماء الرياضيات والفيزياء والكيمياء ثم غادرت مخبر التاريخ ، وظهرت الحضارة العربية المسلمة وتركت بصمات على صفحات التاريخ من علوم ومعارف لا زالت موضع إندهاش العلماء عبر التاريخ في كل التخصصات ثم إنطفأت تلك الشعلة عندما هزمت الدول وأسرع الفساد إليها وعلى نفس المنوال خطت الحضارة الهندية ثم أخيراً ظهرت الحضارة الغربية بما تحمله من ثقافات وعلوم وإختراعات لكن الحضارة تبقى في النهاية تاركت أثراً فيزيائية تتمثل فيما يدرسه علماء الآثار ( الأركولوجيا ) وأثراً ثقافية عند الشعوب التي غادرتها الحضارة ثم تظهر عبر التاريخ الصراعات والصدوع والتحالفات والتفاهات والتعايشات والحوارات بين الأمم والشعوب ، هل هذا راجع إلى التباينات الثقافية أم الإختلافات الإقتصادية السياسية أم إلى جذور تاريخية أخرى ؟ هذا ما سنقوم بتسليط الضوء عليه عن طريق التحليل العلمي في مخبر كيمياء التاريخ وعلم الإجتمع .

**1- المعادلة التفاعلية بين الثقافة والحضارة :**

تظهر الحضارات في بيئات متباينة الثقافة ، فالحضارة الغربية ظهرت حيث تسود قيم ومعايير الفردانية التي كانت أساس قيام النهضة الحضارية في الغرب ، بينما الحضارة

الصينية واليابانية الحديثة فإنها تقوم على قيم ومعايير العمل الجماعي ولكنها أقامت حضارة متميزة في دول شرق آسيا ، فرغم إختلاف القيم والمعايير إنتهى التفاعل بين الثقافة والحضارة إلى نفس النتيجة " إن العلاقة الحضارة العالمية وبين الثقافات تختلف حسب قدرة كل ثقافة على إدماجها في بنية مفاهيمها وقيمها الخاصة ، وحسب البيئة التي تعيش فيها هذه الثقافة ، وعن هذا الإختلاف تصدر المدنيات وتتميز داخل نطاق كل حضارة ، أي تتحد درجة تمدن كل مجتمع وأسلوبه ، فقد فجرت الحضارة الصناعية مثلاً البنية العائلية في أوروبا وحلت كل التجمعات الإقطاعية التقليدية ، بينما ساهمت في اليابان بتدعيم القيم الجماعية ، وأصبح المصنع ذاته إطاراً جديداً لترسيخ علاقات التبعية الشخصية ، ولم يؤثر ذلك على نمو النظام الصناعي ، بل فتح له أفاق تطور أكبر كما هو معروف ، وذلك على عكس ما تردده بعض النظريات الإجتماعية . وبالمثل ذكر علماء الإجتماع في بداية هذا القرن وأهمهم **ماكس فيبر** ، أن الصناعة لا يمكن أن تتطور إلا في إطار منظومة قيم تركز على الفردية وتشجع عليها . بيد أن التطور الصناعي في بلدان الكتلة الشرقية لم يظهر فقط أن من الممكن قيام عملية تصنيعية ناجحة على أساس تعميق القيم الجماعية ، بل إن ترسيخ هذه القيم يمكن أن يشكل قاعدة لنمو صناعي أسرع ، ويساهم في تجاوز العديد من التناقضات الإجتماعية التي تفرزها العملية التصنيعية ، خاصة في مراحلها الأولى ، وبينت تجربة البلاد النامية أن من الممكن نقل وسائل الحضارة ومنتجاتها ونظمها الصناعية والعلمية دون الحصول على أي تطور حقيقي وذاتي أي دون أن تؤدي إلى نشوء المدنية ، بل مع تعميق الإتجاهات نحو التحلل والانحلال الإجتماعي والثقافي . وهذا يعني أن دراسة السيرورة الحضارية هنا أو هناك تقتضي دراسة شروط التفاعل بين الحضارة والثقافة ، وهي شروط خاصة بكل جماعة تبعاً لتاريخها وبيئتها السياسية والإجتماعية والطبيعية ، ويمكن لهذه الدراسة وحدها أن تبين لنا مشكلات النهضة والتخلف ، أي الصراعات والمشكلات والتناقضات التي يتوجب على المجتمع أن يجد لها حلا كي يحقق توازنه الذاتي ويستكمل تطوره ، فلا تستطيع جماعة أن تتطور ، أي أن تحظى بدناميا تراكمية إلا إذا نجحت في التوفيق بين السيرورة الحضارية العالمية وسيرورتها الثقافية الخاصة " 1

وعلى هذا الأساس فإن التماهي مع الذات التاريخية للأمة والجماعة وإحياء تراثها المعرفي والثقافي يعتبر شرطاً أساسياً للإنغماس في عملية النهضة والتمدن والتحديث والإحياء

التاريخي الحضاري للأمة والدولة والعودة إلى التاريخ من بابة الحقيقي وذلك بإرساء وترسيخ قيم العدالة والمعرفة على مستوى شبكة العلاقات الإجتماعية .

" إنه يعني أن مصير النهضة ليس معلقاً بإحياء التراث لوحده ، ولا بإستيعاب الحضارة لوحدها و إنما بالإحتفاظ بهذا التناقض الحي بينهما ، أي بهما معاً ، بل إنه يعني أن القدرة على الإبداع والإبتكار والنهضة ، مرتبطة بالسماح لهذا التناقض أن يتعمق ويستمر . ولهذا نحن ندعو إلى إحياء أكثر مايمكن من التراث ، والإنغارز أكثر مايمكن في العمق التاريخي العربي من جهة ، وإلى إستيعاب أكثر مايمكن من الحضارة والإرتماء أكثر مايمكن في حركة التاريخ الكونية العامة من جهة ولا نعتبر أن هناك من وجهة نظر النهضة تناقضاً بين إحياء التراث وإستيعاب الحضارة ، بل العكس هو الصحيح ، إن قدرتنا على الإستيعاب تزداد بإزدياد إنغرازنا في التراث وتمتعنا بهوية مستقلة وغنية وأن تعمق هذه الهوية يزداد بإستعابنا للحضارة وسيطرتنا عليها ، فالمندنية العربية المنشودة هي ثمرة لهذا الإبداع الذي يوحد بين التراث والحضارة ويتجاوزهما في الوقت نفسه ، ومن هنا نقول : نأخذ من الحضارة ولا نأخذ بها ، ونحیی التراث ولا نحيا به ونرفض الحلول السهلة ونرفض التقليد من أي طرف جاء ويعني هذا أيضاً أن الحدائة ، أو تأهيل الحضارة ليس حلاً جاهزاً ، ولا مسألة محسومة ، بل هي مشكلة في حد ذاتها وهي تحتاج إلى بحث وتدقيق ونقد وتفكيك وإعادة تركيب وأن الهوية ليست حلاً معطاً أيضاً قابلاً في التراث إذا أحييناه حصلنا على هوية وشخصية ، إنما هي الأخرى مشكلة معقدة تستدعي تجديد التراث وإعادة تركيبه وصياغته في ضوء مشكلات العصر ، دون أن يعني ذلك نفيه أو تشويهه

فالتراث ليس أفكاراً أو قيماً شكلية يعاد تأويلها أو تفسيرها أو إلباسها فتصبح شيئاً آخر . فليس هناك إمكانية ولا مبرر للتحديث ونمو للذاتية المبدعة ووعي بالذات ونزعة قوية لتأكيد القيمة الجماعية والإرادة القومية وليس هناك إمكانية لتحقيق الهوية وتعميق الشعور بالذاتية والأصالة دون التقدم في وسائل تمثل الحضارة المادية والتقنية ، ولذلك فإن فصل أي من المطلبين عن الآخر أو التضحية لا يمكن أن يقود إلا إلى إجهاض النهضة وتحولها إلى تحديث رث وإغتراب مدمر أو تأصيل مفقر مثبط " 2

ومنه فإن شجرة الحضارة تنعمر جذورها أساساً ووجوباً في تراب التراث الثقافي والمعرفي للأمة وتمتد عمقاً في الوقت ذاته تنمو جذوعها وأغصانها و أوراقها في سماء الحضارة والتحديث مستمدة كل ذلك مما يسمى بالحضارة الحديثة وأي مشروع تضحية بالجذور أو

الجدوع وفروعها و أوراقها يؤدي إلى إجهاض مشروع النهضة الحضارية ويعتبر عملية عبثية في المحاولة المستمرة من أجل تحقيق مشروع التقدم الحضاري .

## 2- الخريطة التاريخية للحضارات في منظور السوسولوجيا

### الخدونية :

تظهر الحضارات في كل عصر و مصر إنطلاقاً من قوانين التاريخ والإجتماع الإنساني وال عمران البشري حيث تصحبها عوائد الفنون والصنائع والحرف التي تكثر وتزخر أسواقها إنطلاقاً من كثر الإنتاج والمال والحال الذي يتوزع بين البشر حسب كثافة شبكة العلاقات الإجتماعية والتراتب الإجتماعي

" والسبب في ذلك أن الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران ، زيادة تفاوت . تفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر ، ويقع فيها عند كثرة التفنن في أنواعها و أصنافها ، فتكون بمنزلة الصنائع ، ويحتاج كل صنف منها إلى القومة عليه ، المهرة فيه . ويقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل صناعتها ، ويتكون ذلك الجيل بها ، ومتى إتصلت الأيام وتعاقبت تلك الصناعات ، حثق أولئك الصناع في صناعتهم ومهروا في معرفتها ، والأعصار بطولها و انفساح أمدها وتكرر أمثالها تزيدها إستحكاماً و رسوخاً و أكثر ما يقع ذلك في الأمصار لإستبحاره العمران وكثرة الرفه في أهلها . وذلك كله إنما يجيء من قبل الدولة ، لأن الدولة تجمع أموال الرعية وتتفقه في بطانتها ورجالها . وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من إتساعها بالمال ، فيكون دخل تلك الأموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ، ثم فيمن تعلق بهم من أهل المصر ، وهم الأكثر ، فتعظم لذلك ثروتهم ، ويكثر غناهم وتتزيد عوائد الترفه ومذاهبه ، وتستحكم لديهم الصنائع في سائر فنونه ، وهذه هي الحضارة . ولهذا تجد الأمصار التي في القاصية ، ولو كانت موفورة العمران ، تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذلك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه مما قرب من الأرض ، إلى أن ينتهي إلى الجفوف على البعد.

وقد قدمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه وإذا بعدت على السوق إفتقدت البضائع جملة ، ثم إنه إذا إتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصر واحداً بعد واحد إستحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخاً ، وإعتبر ذلك في

اليهود ، لما طال ملكهم بالشام نحواً من آلاف وأربع مئة سنة رسخت حضارتهم وحدثوا في أحوال المعاش وعوائده ، والتفنن في صناعاته من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل . حتى إنها لا تؤخذ عنهم في الغالب إلى لا يوم ورسخت الحضارة أيضاً وعوائدها في الشام منهم ، ومن دولة الروم بعدهم سنتة مئة سنة فكانوا في غاية الحضارة . وكذلك القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة في بلادهم مصر ، وأعقبهم بها ملوك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل ، فلم تزل عوائد الحضارة بها متصلة ، وكذلك رسخت عوائد الحضارة باليمن ، لإتصال دولة العرب بها منذ عهد العمالة والتبابعة آلاف من السنين وأعقبهم ملك مصر ، وكذلك الحضارة بالعراق لإتصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيين والكينية والكسروية والعرب بعدهم آلاف من السنين ، فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر " 3

إن تراكم عوائد الحكم والسلطة والدولة القوية يورث أحوال الحضارة وال عمران البشري والإجتماع الإنساني تماماً كتوارث الصفات البيولوجية عبر الكروموزومات والمورثات أي أن التوالد الحضاري خاضع لقوانين الوراثة التاريخية للحضارة بكل أشكالها ونواتجها في مختلف المجالات .

" وكذلك رسخت عوائد الحضارة وإستحكمت بالأندلس ، لإتصال الدولة العظيمة فيها للقوط ، ثم ما أعقبها من ملك بني أمية - آلاف السنين ، وكلتا الدولتين عظيمة . فإتصلت فيها عوائد الحضارة وإستحكمت ، وأما إفريقيا والمغرب فلم يكن فيها قبل الإسلام ملك ضخم ، إنما قطع الروم والإفرنج إلى إفريقيا البحر ، وملكوا الساحل ، وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة أوفاز ، وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وإنما كانوا يبعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ، ولما جاء الله بالإسلام ، وكانوا لذلك العهد في طور البداوة ، ومن إستقر منهم بإفريقيا والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلد فيه من سلفه ، إذ كانوا برابرة منغمسين في البداوة ، ثم إنتقض برابرة المغرب الأقصى لأقرب العهود على يد ميسرة المضفري أيام هشام بن عبد الملك ، ولم يراجعوا أمر الغرب بعد و إستقلوا بأمر أنفسهم وإن بايعوا لإدريس فلا تعد دولته فيهم عربية ، لأن البرابر هم الذين تولوها ، ولم يكن من العرب فيها كثير عدد ، وبقيّة إفريقيا إلى الأغالبة ومن إليهم من العرب ، فكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه ، وكثرة عمران القيروان ، وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعده ، وذلك كله قليل لم يبلغ أربع

مئة سنة ، و إنصرفت دولتهم ، وإستحالة صيغة الحضارة ، بما كانت غير مستحكمة ، وتغلب بدو العرب الهالين عليها وخربوها ، وبقي فيها أثر خفي من حضارة العمران فيها ، وإلا هذا العهد يؤنس فيمن سلف له في القلعة أو القيروان أو المهديّة سلف ، فتجد له من أحوال الحضارة في شؤون منزله وعوائده أحواله ، أثاراً ملتبسة بغيرها يميزها الحضري البصير بها وكذا في أكثر أمصار إفريقيا ، وليس ذلك في المغرب و أمصاره ، لرسوخ الدولة بإفريقيا أكثر أمداً منذ عهد الأغالبة والشيعية وصنهاجة ، وأما المغرب فإنتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس ، حظ كبير من الحضارة ، وإستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم بالإستيلاء على بلاد الأندلس ، وإنتقل الكثير إليهم طوعاً وكرهاً وكانت من إتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة وإستحكامها ومعظمها من أهل الأندلس ثم إنتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقيا ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة أثاراً ، معظمها بتونس إمتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان ذلك للمغرب وإفريقيا حظ صالح من الحضارة عفا عليه الخفا ، ورجع على أعقابه وعاد البربر بالمغرب إلى أديانهم من البداوة والخسونة ، وعلى كل حال فآثار الحضارة بإفريقيا أكثر منها بالمغرب وأمصاره لما تداول فيها من الدول السالفة أكثر من المغرب ، ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم ، فتفطن لهذا السر فإنه خفي عن الناس " 4

وعلى هذا الأساس كلما طال عمر الدولة طال مع عوائد الحضارة ورسخت الصنائع والحرف والإنتاج في شتى الميادين وهذا ما تؤكدته نظرية العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في مجال العمران البشري والاجتماع الإنساني ، إنها سنن التاريخ الثابتة حسب الدراسات التي أجراها فيلسوف التاريخ ومبدع علم الاجتماع .

### 3- سوسيولوجيا الصراع بين الحضارات في منظور الاختلاف

#### الثقافي :

يرى صموئيل هنتيغتون أن الصراعات الحاصلة على مستوى الأحداث التاريخية العالمية عبر العصور وكر الدهور هي ذات أصل ثقافي أي ترجع إلى الإختلافات الثقافية بين الشعوب والأمم والقبائل بمعنى آخر أن هناك تحولات مرضية تؤدي بتحول الصراع الثقافي إلى صراع حضاري والذي يظهر في شكل حروب و إقتتال بين الجيوش والأحلاف العسكرية المتباينة .

" في هذا العالم الجديد ، فإن أكثر الصراعات إنتشاراً وخطورة لن تكون بين طبقات إجتماعية غنية أو فقيرة ، أو جماعات أخرى محددة على أسس إقتصادية ، ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة ، الحروب القبائلية والصراعات العرقية أو الإثنية سوف تقوم داخل الحضارات ، إن العنف بين الدول والجماعات من حضارات مختلفة ، مع ذلك ، سوف يحمل معه قابلية التصعيد حينما تنهض دول أخرى وجماعات أخرى من هذه الحضارات لتأزر وتدعم دولها بالنسب ، إن الصدام الدامي في الصومال لايشكل تهديداً لصراع أوسع ، الصدام الدامي بين القبائل في رواندا له نتائج بالنسبة لأوعندا وزائير وبوراندي ولكن لنطاق أوسع من ذلك ، أما الصدامات الدامية بين الحضارات في بوسنيا ، والقوقاز ووسط آسيا وكشمير يمكن أن يتحول إلى حرب أوسع نطاقاً في النزاعات بين اليوغسلاف ، قدمت روسيا الدعم الدبلوماسي للصرب وقدمت السعودية وتركيا و إيران وليبيا المال والسلاح للبوسنين ، ليست بسبب أو دواعي إيديولوجية أو صراع القوى أو المصالح الإقتصادية ولكن بسبب الصلات أو الروابط الثقافية ، ( الصراعات الثقافية ) كما لاحظها **هاكلاف هافل** تأخذ في الإزدياد وهي أكثر خطورة اليوم من أي وقت مضى في التاريخ ، وقد أقر **جاك دايثور** أن الصراعات المستقبلية سوف توفد شرارتها بفعل عوامل ثقافية وليس إقتصادية أو إيديولوجية ، إن أكثر المصادمات خطورة هي الصراعات الثقافية التي عبر خطوط الصدع بين الحضارات " 5

ومنه فإن الإلتماعات الدينية المتباينة والإختلافات الثقافية والهوتية تؤدي إلى النزاعات والصدوع التاريخية بين الدول و الأمم والحضارات وتؤول كلها إلى تدمير البنى والهيكل العمرانية والديمغرافية مما يؤثر على الأنساق التاريخية للدول والأمم على مستوى القيم والمعايير والأخلاق والعلوم و المعارف والإنتاج الحضاري .

" لا يتردد غير الغربيين للإشارة إلى الفجوة بين المبادئ والممارسات الغربية ، النفاق والرياء والمعايير المزدوجة وهي تسمي غرور العالمية ، الديمقراطية عززة أما إذا جاءت بالسلطة الأصولية الإسلامية ، فهي لا تعزز ولا تدعم ، عدم إنتشار الأسلحة النووية بالنسبة لإيران والعراق ، ولكن ليس المقصود بذلك إسرائيل ، حرية التجارة إكسير النمو الإقتصادي ولكن لاتتعلق بالزراعة ، حقوق الإنسان قضية أساسية مع الصين ولكن مع العربية السعودية ، العدوان على الكويت الغنية بالنفط يجب صده بقوة ، ولكن لا يتعلق هذا بالبوسنين ، والمعايير المزدوجة في الممارسة هي الثمن الذي لا يمكن تجنبه والمجتمعات غير الغربية



تتم بعد تحقيق الإستقلال السياسي ، أن تتحرر من الهيمنة الإقتصادية والعسكرية الغربية ، مجتمعات شرق آسيا في طريقها لمساواة الغرب إقتصادياً ، البلدان الآسيوية والإسلامية تنظر في المدى القريب لموازنة الغرب عسكرياً ، الطموحات العالمية للحضارة الغربية وإنخفاض القوة النسبية للغرب وتزايد الإصرار الثقافي للحضارات الأخرى يؤكد بشكل عام صعوبة العلاقات بين الغرب وباقي العالم ولكن طبيعة هذه العلاقات ومدى العدائية بينهما ، تختلف ويمكن تصنيفها في ثلاث تصنيفات : الحضارة المتحدية ، وهي الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية ، ومن المحتمل أن يكون للغرب علاقة متوترة مشدودة و غالباً علاقات عدائية جداً علاقة الغرب بالعلاقات الأضعف والمتمثلة في أمريكا اللاتينية وإفريقيا التي تعتمد على الغرب ستتضمن دنيا من الصراع ، وخاصة دول أمريكا اللاتينية : العلاقات الغربية الروسية ، واليابانية والهندية من المحتمل أن تتضمن عناصر التعاون والصراع ، حيث أن هذه الدول الأساسية الثلاث السابقة تقف في أوقات مع الحضارات المتحدية وفي أوقات إلى جانب الغرب ، هذه الحضارات المتأرجحة مع الغرب من جهة والحضارات الإسلامية والصينية من الجهة الأخرى " 6

إن حتمية الصدام والصراع بين الحضارة المتحدية والحضارة الغربية تأخذ بعداً تاريخياً قديماً ، فالحرب بينهما سجل والإقتتال أصبح من العوائد التاريخية المستمرة التي تؤول إلى إستنزاف تاريخي لكل الطاقات السوسيوثقافية ، إضافة إلى المتارجحات التاريخية بين النزاع والتعاون بين الغرب والحضارات الأضعف في أمريكا .

" هكذا فقد شكلت أحداث القرن العشرين المصدمة لوحة الخلفية لأزمة فكرية عميقة ، إننا لا نستطيع في الواقع التكلم عن التقدم التاريخي إلا إذا عرفنا إلى أين تتجه الإنسانية ، إن معظم أوربي القرن التاسع عشر كانوا يعتقدون أن التقدم يعني التقدم نحو الديمقراطية ، ولكن بالنسبة للقسم الأكبر من عصرنا لم يتبلور أي توافق حول هذه المسألة ، هناك إيديولوجيتان منافستان للديمقراطية الليبرالية - الفاشية والشيوعية - تقترحان رؤى مختلفة جذرياً للمجتمع المثالي ، لقد توصلت شعوب الغرب للتساؤل إذا ما كانت الديمقراطية الليبرالية تشكل حقاً التطلع العام للإنسانية كلها ، وإذا ما كانت قناعتهم بذلك صادرة من مركزية إثنية ضيقة من جانبهم ، إن الأوربيين بعد أن واجهوا العالم الغير أوربي ، كمستعمرين أولاً ، ثم كحماة خلال الحرب الباردة ، وأخيراً كمتساويين معه نظرياً في ظل عالم الدول الأمم ذات السيادة ، فقد طرحوا أخيراً على أنفسهم السؤال حول الشمولية الحقيقية لمثلهم ، إن جنون التدمير الذاتي

والإنتحار الذي مارسه الدول الأوربية خلال الحربين العالميتين كذب مفهوم التفوق العقلاني للغرب ، وتميز بين المتحضر والبربري الخاص بأوربي القرن التاسع عشر أصبح من الصعب الإحتفاظ به بعد معسكرات الإبادة النازية ، فبدلاً من أن يكون هناك تاريخ إنساني واحد موجه بإتجاهواحد يبدو بعد تلك الحقبة أن هناك عدداً من الأهداف يوازي الشعوب أو الحضارات بإعتبار أن الديمقراطية الليبرالية لا تتمتع في ظلها بأي إمتياز كياني خاص " 7

4- سوسيولوجيا الحوار و التفاهم والتعايش بين الحضارات في

### ضوء الإختلاف الثقافي :

يرى **دييتر سنغاس** أن المطارحة العلمية لهنتغتون حول الصدام الحضاري بين الغرب والحضارة العربية المسلمة والحضارة الكنفوشيسية على أساس أنه يقوم إنطلاقاً من المتباينات الثقافية هو تحليل سطحي يقوم على حجج واهية لا أساس لها من الصحة ، ويؤكد في تحاليله العلمية أن أصل الصراع بين الأمم والشعوب والقبائل والدول والحضارات له جذور سياسية وإقتصادية بالدرجة الأولى والجذور الثقافية تأتي في درجة ثانية .

" ولعل ما يثير الدهشة في كتاب عن صدام الحضارات أن لا يكشف صراحة وبوضوح عن الأفكار الرئيسية التي تمثل جذر إستعداد الحضارات للحرب ، بيد أننا نقرأ تعليقات عرضية و إشارات تاريخية عن الحروب الصليبية ( المسيحية ) والحروب المقدسة ( الإسلامية ) وكذا عن ميل الدولة الصينية إلى التفكير تأسيساً على رؤية للهيمنة بدلاً من توازن القوى ، وطبيعي أن هذا لا يقوم بديلاً عن التحليل النسقي المنهجي ، و إن مثل هذا التحليل من شأنه أن يصل بنا إلى إجابة عن الأسباب المؤدية فعلاً إلى سلوك قائم و كذا عن ذهنية الحرب الصليبية أو ماهو على النقيض من ذلك لضبط النفس أو الإستعداد للحوار داخل الحضارات كلاً على حدا ( بإعتبارها قوى فاعلة ) ولماذا ينبع من روح الثقافة ذاتها لكل حضارة على حدا وبخاصة في حالة صراع الحضارات والإستعداد للصراع والعنف ، والعدوان والسلوك العنيف . إننا إذا ما إفترضنا كما يفترض هنتغتون بوضوح ، وجود ( روح الثقافة ) التي يمكن إكتشافها وإدراكها ، وأنها روح بكر أصيلة لم تتغير تختص بها كل حضارة على حده ، فإننا نصل إلى إدراك نزوعها القتالي الفطري إلا من خلال تحليل تفصيلي لهذه الثقافة ولكن ما يثير الدهشة والإستغراب أننا لا نجد مثل هذا التحليل ، ولهذا غير من منظوره الفكري الأساسي على المستوى الكلي ( الماكرو ) إلى مجرد رؤى وهمية لا تقوم على أساس : إن هذا الكتاب الذي يرى أن صدام الحضارات هو لب السياسة الدولية لا

يفسر لنا لماذا حضارات بعينها أو الدولة الممثلة لها ، يتعين عليها أن تدخل في صدام أصلاً كنتيجة لخصائص ثقافية ، وإذا إفترضنا أن الخصائص الجوهرية للحضارة الغربية التي عرضها هنتغتون وهي الشيء الوحيد الذي عرضه بالتفصيل التي إندلعت نيرانها في أوروبا أو تفسير للعدوان الإستعماري في مرحلته التجارية والصناعية وكذا عنف أوروبا في علاقتها مع بقية العالم ونلاحظ أن ضعف حجة هنتغتون على المستوى الكلي هو الأوضح ، حيث يؤكد خطوط نزاع سياسية عالمية محددة ، إذ يرى فيما يرى وراء النطاق العربي بخاصة حدثين إثنين جوهريين ، أحدهما - شهادة إثبات أسبوية - بمعنى الصعود الإقتصادي والسياسي لشرق وجنوب شرق آسيا ليشكل ماعاً محور جاذبية جديد للسياسة العالمية والإقتصاد العالمي ، والثاني النهضة الإسلامية بمعنى إحياء الإسلام كقوة سياسية ، ويقوم هنتغتون علاقة تواطئ تضم الكونفوشية والإسلام تجمع قوى كل من الطرفين في مضمار نزاعتهما الثقافية مع الغرب ، ولكن هنتغتون يرى أن مثل هذه النزاعات فيما بين الثقافات لا تتضمن فقط حرباً سياسية من أجل حقوق الإنسان بل وأيضاً حرباً من أجل عدم إنتشار وسائل الإبادة الشاملة ، ويتمثل العنصر الكونفوشي هنا في الصين وكوريا الشمالية بينما يتمثل العنصر الإسلامي في باكستان والعراق وإيران وسوريا وليبيا والجزائر ، بيد أن علاقة هذا الإفتراض ( الذي لم يكتشفه أحد حتى الآن سوى هنتغتون ) بروح الثقافة الصينية أو بالإسلامية أو لنقل الحضارة يظل غير محدد خاصة إذا عرفنا أن تجارة السلاح لهذه الحكومات يمكن تحليلها من منظور إلتماس قوى سياسية أو إقتصادية ومن ثم فإن تفسير هذه الوقائع بإعتبارها صدام حضارات أي سلوك قائم على الصراع وليد كل حضارة على حده يمكن إعتباره تفسير فيه تزايد وتجاوز وهاهنا تغدو حجة هنتغتون حجة تعسفية على نحو مخيب للأمل ، وتظل ، بعد هذا كله أو قبله بغير أساس ثقافي ذلك لأنها وعلى الرغم من تركيزها على الثقافة لا تكشف على أي رابطة بين الثقافة من ناحية وبين السلوك العياني الواقعي على المستوى السياسي الكوكبي من ناحية أخرى " 8

إن الحروب الحقيقية في التاريخ القديم والحديث هي في الأصل حروب سياسية وإقتصادية وقد تتحول إلى حروب عسكرية كما يقول ديبتر سنغاس ، وهذا ما تعاضده المطارحة العلمية للعالم الألماني هارالد مولر في كتابه ( تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتغتون ) حيث يطرح مشروع تعايش الثقافات والحضارات لبناء السلم العالمي الدولي .

" وتحت عنوان واضح : لا صراع ، بل حوار بين الحضارات . كتب هارالد مولر يقول : ينبغي أن نزيد من معرفتنا بثقافات أخرى ، فالمعرفة حول الإسلام أو الهندوسية ، أو البوذية تساوي صفراً من ناحية عملية ، كما أن أغلب الناس لم يسمعو بالكنفوشيسية والشينتوية ، وهذا عيب فادح فقد إجتاز الغرب الحوار مع الشيوعية بنجاح لأن كل شخص تقريباً كان يمتلك فهماً أساسياً لهذا الآخر ، إنما ينجح في الحوار ضدي لهو هام أيضاً للحوار البناء ، فالآخر الذي يعرف المرء عنه شيئاً يصبح أكثر قرابة ، والحوار يغدو أكثر سهولة ، وقد تم هنا تحريك بعض الأمور في خطط التربية والتعليم بوسائل قليلة ، كما أن الكنائس كذلك يمكنها إنجاز الكثير حينما تعطي الأديان العالمية الأخرى أيضاً فرصة للحديث ، البشر خائفون ، هكذا بدأ الكتاب ، ولكن الخوف هو أسوء من يقدم النصيحة في غالب الأحيان ، فأفضل تعامل مع الآخر هو الإنفتاح وليس الإنغلاق المحكم هو الوصفة المناسبة ، إننا المجتمعات الغربية - أشد قوة مما توحى به إلينا مخاوفنا ، فقوتنا تثير خوف بقية العالم ، ويستطيع الأكثر قوة ، بدون خوف على وجوده ، أن يتجهوا نحو الأكثر ضعفاً ، وهذا بالضبط ما هو مطلوب من الغرب ، إن التطورات الكونية تقدم سبباً لنتوقع أن الأمور مشتركة بين المجتمعات تتوسع أكثر مما تتضائل ، وحيثما نبحث ، فإننا سنجد شريكاً للحوار وإهتماماً في التعاون أما إلى أين يمضي العالم في القرن العشرين ، وهل الفوارق الثقافية ستكون سبباً أقرب إلى النبذ أم إلى التعاون ، فإن ذلك متوقف على تعاملنا - نحن الغرب - مع هذه الأمور ، إن مسؤولية تناط هنا بالقوة القيادية أي الولايات المتحدة الأمريكية لا يملك المرء سوى الرجاء في أن يكون الأمريكيون أهلاً لها ، ولكن ليست جميع الإشارات تجعل هذا الأمل قريباً ، يجب أن تكون نقطة الإنطلاق في وعينا لقوتنا ، ولكن في ضرورة حماية مكتسباتنا وتطويرها بإعتدال من خلال الحوار مع الآخرين ، أما هل سيكون القرن الحادي والعشرون دموياً مثل القرن العشرين أو أن النزاعات العنيفة ستكون ظاهرة عارضة لنظام عالمي يقوم إلى حد بعيد على التعاون، فإن ذلك يتوقف بشكل ضئيل على التحدي الصيني المشتمل على اليابان أيضاً ، أو على الأصولية الإسلامية ، بل يتوقف علينا نحن أنفسنا بالدرجة الأولى " 9

وفي الأخير يطرح هارالد مولر باب الأمل في القوى العظمى في تبني المشروع الأمل وهو مشروع تعايش الثقافات والحضارات التي تعطي على النزاعات الضيقة ويرسخ ثقافة التعاون والحوار بين الأمم والشعوب والدول .

" إن المشكلة هي مشكلة إحداث تغيير جذري في الأنموذج الغربي لعلاقتنا مع الطبيعة بفضل حكمة الصين و إفريقيا والهند والإسلام ، مشكلة إقامة توازن في مفهومنا ذي النزعة التقنية بالإفادة من تجربة حية شعرية وصوفية هي تجربة إتصالنا ومشاركتنا في طبيعة لا نملكها بل نملكنا ، و ( إن حوارات الحضارات ) هذا ليؤلف مرحلة لازية على الصعيد الإقتصادي ، في التساؤل الإنتقادي وفي التغيير الجذري لطرز تنميتنا وفي إكتشاف غايات أخرى للتنمية ، وفي الوصول إلى تعريف آخر لمعنى التطور .

إن حوار الحضارات الملمح إليه يكافح عزلة ( أنا الصغيرة ) المتبجحة ويبرز واقع ( الأنا ) الحقيقي الذي هو بالدرجة الأولى وعلاقته بالآخر ، وعلاقته بالكل ، وهو يعلمنا أن لا نتصور المستقبل في شكل إيمان ساذج بالتقدم ولا في صورة فيض من إنجاز مشاريعنا إنجازاً تقنياً ، بل على هيئة طفو حياة جديدة جده تامة بنسك ( اللأنا ) و ( اللاعمل ) و ( اللامعرفة ) ، إن حوار الحضارات هذا يساعدنا ، بذلك ، على أن نتفتح في الصعيد الثقافي ، على أفاق لا نهاية لها في المنظور الذي توحى في جميع المجالات أحدث تجددات الثقافة الغربية وهو أيضاً وعي بأن العمل ليس وحده ينبوع جميع القيم ، وأن وراءه يوجد العيد والرقص بوصفه رمز فعل الحياة ، إن مجتمعاتنا البرجوازية مجتمعات فاستية ومن المؤسف أن تكون ثوراتنا كذلك أيضاً ، لتكن ثورات ( ديونيزية ) ، أي تقبل أن يكون في وسع الإنسان أن يعرب عن نفسه خارج نطاق عمله ومشاريعه العقلية ( الأيولونية ) ، فيعثر من جديد على مرح ( ديونيزوس ) بالحياة ، هذا الإلاه الراقص الذي جاءنا من الشرق ، لعلنا نستطيع أن نتعلم من جديد ، على هذا النحو ، حرية جديدة لا تتحقق إلا مع الآخرين في الحب ، لا في مجرد المطالبة الفردية ، حرية أساسها تفضيل القصيدة والإبداع على مجرد المشروع التقني والمفهوم المجرد " 10

هذا المشروع الحضاري العظيم الذي يطرحه الفيلسوف روجيه غارودي وهو حوار الحضارات الذي يعتبر فتح قارة تاريخية جديدة في عالم الإمكان تجمع بين فلسفة الكم المغربية وفلسفة الكيف المشرقية ، في اللحظة التاريخية التي يتزوج فيها الفن بالعلم فيفرح الوعي بذاته وتصبح الأرض ورشة تاريخية من الإنتاج والحلول والإبداعات الحضارية الخارقة .

إن الحوار بين الحضارات يتطلب الإصغاء العميق بين الأطراف المتحاوره بهدف الفهم والتفاهم والوصول إلى حلول جذرية في شكل فتح قارات جديدة في عالم الإمكان " إذ أن

حوار الحضارات يتطلب أن ننصت للآخر كما نتحدث إليه بالضبط ، فالإنصات فضيلة علينا أن نتحلى بها ، وليس ذلك بالأمر السهل بل لابد في سبيل ذلك أن يبادر الإنسان إلى إمتلاك لوناً خاص من الأخلاق وتهذيب النفس والرياضة العقلية ، لكن الإنصات يختلف عن الصمت ، فهو ليس مجرد ممارسة إنفعالية تتأثر خلالها ، وإنما يُعبر عن فعل ونشاط نقوم به بالنحو الذي يؤدي إلى إنفتاح السامع بكيانه ووجوده على ذلك العالم الذي يتولى المتحدث الكشف عنه أو يقوم بخلقه وإنشائه ، وهكذا فإن الفشل سيكون حليف عملية

التحاور مادامت لم تقترن بعملية الإصغاء " 11

فالحوار بين الحضارات يعتبر البديل الثالث في المعادلة التاريخية لمشكلة الصراعات بين الحضارات ذات الإختلاف والتباين الثقافي ، إنه الإبداع التاريخي بين فرقاء الحضارة و القارة الجديدة التي تتلاقى فيها الهويات التاريخية الحضارية .

" يمثل حوار الحضارات بداية لطريق يتجه نحو حياة أفضل للإنسانية من خلال أخذ الدرس والعبرة من الماضي ويطمح حوار الحضارات إلى الإعلان عن نهاية تلك المرحلة التي زخرت بالتمييز والإزدواجية والحروب والدمار فيستأنف طريقاً جديداً في حياة الإنسان من المفترض أن ينتهي بالسلام والمصالحة ، بفضل عزم وإرادة يتحلى بهما الجيل الجديد ، ونموذج الحياة الذي نطمح إليه يخلو من الكذب والزيف والقوة والتمييز وهذا ما تتطلبه فطرة الإنسان وهو ما يعني أننا حققنا خطوة في طريق الإنسانية " 12

### الخلاصة:

تباينت الأطر النظرية للعلماء والفلاسفة في ميدان إشكالية الثقافة في العلاقات التاريخية بين الحضارات ، بين صموئيل هنتغتون الذي يطرح نظرية الصدام والصراع على أساس الإختلاف والتباين الثقافي بين الشعوب ، ودييتر سنغاس و هارالد موللر و روجيه غارودي الذين يختلفون في التصور عن هنتغتون ويطرحون نظرية التعايش والتفاهم والحوار بين الثقافات والحضارات ، ولكن الحقيقة التاريخية تؤكد وجود كليهما في التاريخ الصراع والتعايش بين الأمم والشعوب والقبائل والثقافات والحضارات مما يؤكد أن العوامل السوسيوثقافية المتحركة في العلاقات التاريخية بين الحضارات متعددة ومتباينة : السياسة ، الإقتصاد ، الثقافة ، الدين ، الجغرافيا ... كلها جذور تفاعلية تؤدي في النهاية إلى حالة الصدام الحضاري أو التعايش الحضاري .

**قائمة الهوامش :**

- 1-برهان غليون (1990) . " إغتيال العقل " . الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر . ب.ط . ص 130 .
- 2-برهان غليون . نفس المرجع . ص 360 .
- 3-إبن خلدون ( 2009 ) . " المقدمة " . الجزائر : دار الهدى . ب.ط . ص 409 .
- 4-إبن خلدون . نفس المرجع . ص 407 .
- 5-صموئيل هنتيغتون ( 1999 ) . " صدام الحضارات " . ليبيا : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام . ط 1 . ص 74 .
- 6-صموئيل هنتيغتون ، مرجع سابق ، ص 335 .
- 7-فرانسيس فوكوياما (1993) . " نهاية التاريخ والإنسان الأخير " . بيروت : مركز الإنماء القومي . ب.ط . ص 40 .
- 8-ديبتر سنغاس ، تر : شوقي جلال ( 2008 ) . " الصدام داخل الحضارات ( التفاهم بشأن الصراعات الثقافية ) " . القاهرة : دار العين للنشر . ط 1 . ص ( 136-138 )
- 9-هارالد مولر ، تر : إبراهيم أبو هشيش ( 2005 ) . " تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتيغتون " . طرابلس : دار الكتاب الجديد المتحدة . ط 1 . ص 321 .
- 10-روجيه غارودي ( 2007 ) " حوار الحضارات " ، بيروت : عويدات . ط 6 . ص 216 .
- 11-محمد خاتمي ، تر : صرم الطائي ( 2003 ) . " حوار الحضارات " . دمشق : دار الفكر . ط 1 . ص 42 .
- 12-محمد خاتمي . مرجع سابق . ص 148 .

**قائمة المراجع :**

- 1- إبن خلدون ( 2009 ) . " المقدمة " . الجزائر : دار الهدى . ب.ط .
- 2- برهان غليون (1990) . " إغتيال العقل " . الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر . ب.ط .
- 3- ديبتر سنغاس ، تر : شوقي جلال ( 2008 ) . " الصدام داخل الحضارات ( التفاهم بشأن الصراعات الثقافية ) " . القاهرة : دار العين للنشر . ط 1 .
- 4- روجيه غارودي ( 2007 ) " حوار الحضارات " ، بيروت : عويدات . ط 6
- 5- صموئيل هنتيغتون ( 1999 ) . " صدام الحضارات " . ليبيا : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام . ط 1 .
- 6- فرانسيس فوكوياما (1993) . " نهاية التاريخ والإنسان الأخير " . بيروت : مركز الإنماء القومي . ب.ط .
- 7- محمد خاتمي ، تر : صرم الطائي ( 2003 ) . " حوار الحضارات " . دمشق : دار الفكر . ط 1
- 8- هارالد مولر ، تر : إبراهيم أبو هشيش ( 2005 ) . " تعايش الثقافات مشروع مضاد لهنتيغتون " . طرابلس : دار الكتاب الجديد المتحدة . ط 1 .